ثقافة عمر

إذا تكلمنا عن ثقافة عمر بلغة العصر الحاضر جاز لنا نقول إنه كان رجلا وافر الحظ من ثقافة زمانه، إنه كان أديبًا مؤرخًا فقيها، مشاركًا فى سائر الفنون، ومدربا على الرياضة البدنية، خطيبًا على الكلام، فليس أرجح من نصيبه فى ثقافة زمانه نصيب.

ظل فى إسلامه كما كان فى جاهليته عظيم الشغف بالشعر والأمثال والطرف الأدبية، بل ظل كذلك بعد قيامه بالخلافة واشتغاله بجلائها ودقائقها التى لا تدع له من وقته فراغًا لغيرها، فكان يروى الشعر ويتمثل به ويحث على روايته ويعتدها من تمام المروءة والمعرفة كما قال لابنه عد الرحمن "يا بنى انسب نفسك تصل رحمك، وأحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه. ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يود حقًا ولم يقترف أدبا" . . وقال للمسلمين عامة: "اروا الأشعار فإنها تدل على الأخلاق" .

ونظر إلى فائدته العملية كما نظر إلى متعته الأدبية، فقال فيه أنه جذل[1] من كلام العرب يسكن به الغيظ وتطفأ به النائرة[2] ويبلغ به القوم فى ناديهم، ويعطى به السائل.

وكانت متعته بطرائف الأدب من متع الحياة التى لا يبالى الموت لو حرم نصيبه منها، فكان يقول: لولا أن أسير فى سبيل الله، وأضع جبهتى لله، وأجالس أقوامًا ينتقمون أطايب الحديث كما ينتقمون أطايب الثمر لم أبال أن أكون قدمت.

وإذا اقترنت العبادة باستطراف الحديث المهذب عند عمر فذلك غاية يبلغه فضل الأدب عنده من ثناء وتقريظ.

---

(١) الجذل: الأصلى. (٢) النائرة: الهياج.

وقد كـان إعظام الرجل فى عينيـه بمقدار حـذقه للحديث وقـدرته على الإبانة والنطق الحصيف، فنظر يومًـا إلى هرم بن قطبة ملتفا فى بت[1] يناجيه المسجـد وقد عرف تقـديم العرب له فى الحكم والعلم وهو مـا هو من دماته وضآلة زرى، فأحب أن يكـشفه ويسير حكمـته، فسأله فى علقـمة بن علاثة وعامر بن الطفـيل: أرأيت لو تنافرا إليك اليوم أيهمـا كنت تنفر[2]؟ فـأجابه الرجل: يا أكير المؤمنين! لو قلت فيهما لأعدتها جذعة، أى لأعاد الحرب فتية كما كانت، فأثنى عليه وقال: لهذا العقل تحاكمت العرب.!

وجاءه وفد فـيه الأحنف فتركهم جمـيعًا وأستفـتح ما عنده من الحديث فأعجبه وأعظم قدره وعقد له الرئاسة إلى أن مات.

وسره أن عـاد العرب إلى رواية الشـعر بعـد أن شغلهم عنه الجـهاد فى سبيل الـدين: فكان يقول إن الشعر "كـان علم وقوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد غزو فارس والروم ولهيت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام وجـاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يثلموا[3] إلى ديان مدون، ولا كتاب مكتوب، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقـتل فحفظوا أقله وذهب منهم أكثره.

ومن ناحية الأدب فيـه وناحية الدين معًا حثه على تـعلم العربية "لأنها تثبت العـقل وتزيد فى المروءة"، وقد أوصى بوضع قـواعد النحـو لأنه قوام العربية.

ولم يزل عمر الخليفة هو عمر الأديب طوال حياته، ولم ينكر من الشعر

---

(١) البت: الطيلسان من خرونحوه.

(٢) نفر فلانا ينفره: غلبه فى المنافرة، ونفر فـلانا " بتشديد آلفا" وأنقره: أعانه وغلبه وحكم له وهو المقصود هنا. (٣) لم يثلموا: لم يرجعوا.

إلا مـا ينكره المسئـول عن دين، ولم ينس قط أنه الأديب الحـافظ الراوية إلا حيث ينبغى أن ينسى ذلك ليذكر أنه القاضى المتحرز الأمين.

فنهى عن التشبـيب بالمحصنات كما نهى عن الهجـاء وجىء له بالخطيئة منهما بهجاء الزبرقان بن بدر حيث يقول فيه:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى[1]

فنسى أنه الأديب الراوية ولـم يذكر إلا أنه القـاضى الذى يدرأ الحـدود بالشبهات ولا يحكم بما يعلم دون ما يعلمـه أهل الصناعة، وقال للبرقان: ما أسمع هـجاء ولكنهـا معاتـبة. ثم سأل حـسان بن ثابت فـقضى بأنـه هجاه وأفحش فى هجـائه، فحبسه وأنذره ونهـاه أن يعود إلى مثلها، فـانتهى طوال حياة عمر، ثم عاد إلى الهجاء بعد وفاته.

واستعداده تميم بن مقبل على النجاشى لأنه قال فى قومه بنى العجلان:

إذا الله عادى أهل لؤم وذلة فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل

فذكر عمر قضاءه ولم يذكر روايته للشعر، وقال على سنة القضاء يدفع الحدود بالشبهات: إنه دعاء والله لا يعادى مسلما.

قال تميم: فإنه يقول عنا:

قبيلته لا يدرون بدمه ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر: ليتنى من هؤلاء. قال تميم، وإنه يقول:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من عوف بن كعب بن نهشل

فقال عمر: كفى ضياعا بمن تأكل الكلاب لحمه.

قال تميم: وأنه يقول:

---

(١) الطاعم الكاسى: أى المطعم المكسو.

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر: ذلك أصفى للماء وأقل للسكاك (أى الزحام).

قال تميم، وإنه يقول:

وما سمى العجلان إلا لقولهم خذ القعب[1] واحلب أيهما العبد وأعجل

فقال عمر: كلنا عبد، وخير القوم أنفعهم لأهله.

قال تميم، فسله عن قوله:

أولئك أولاد الهجين وأسرة اللئيم ورهط العاجز المتذلل

فقال عمر: أما هذا فلا أعذرك عليه، وحبس الشاعر ليذكر إبراء الذمة فى القضاء. وقد حاول دلك جهده فأفلح لو يفلح أديب فى نسيان أدبه. ولكنه مطلب ما أستطيع قط ولن يستطاع، فكان عمر فى تخرجه للكلام وعلمه بما تنصرف إليه معانيه أخبر بالشعر من قاض لا يفقه منه إلا ظاهر لفظه ومعناه.

ومن المشهور عن عمر أنه كان عليما بتاريخ العرب وأيامها ومفاخر أنسابها كعلمه بالمتخير من شعرها والسائر من أمثالها.

جنح إلى ذلك بطبعه ونقله عن أبيه، وكثيراً ما كان يقول كما جاء فى البيان والتبين: سمعت ذلك عن الخطاب، ولم أسمع ذلك عن الخطاب.

ومن وصاياه: "تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السود[2] إذا سئل أحدهم عن أهله قال من قرية كذا". ومنها "عليكم بطرائف الأخبار، فإنها من علم الملوك والسادة، وبها تنال المنزلة والحظوة عندهم".

---

(١) القعب: قدح ضخم غليظ، جمعه قعاب وأقعب.

(٢) النبط: جيل من العجم ينزلون بالبطائح بين العراقيين.

وفقه عمر بالشريعة التى كان مسئولا عن نفاذها مشهور بين الفقهاء كاشتهار أدبه واطلاعه على تاريخ قومه. فكان عبد الله بن مسعود يقول: "كان عمر أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا فى دين الله"، وكان إذا اختلف أحد فى قراءة الآيات قال له: اقرأها كما قرأها عمر، وأطنب فقال: "لو أن علم بن الخطاب فى كفة ميزان ذهب بتسعة أعشار العلم.. وقال ابن سيرين: "إذا رأيت الرجل يزعم أنه علم من عمر فشك فى دينه"، وكل ما فسر به آى القرآن فى معرض الحكم والعظة فهو التفسير الراجح فى وزن العقل والدين، وكل ما استخرجه من أحكام الشريعة فهو الحاكم الواضح الصحيح.

ونصائحه للعلماء والمتعلمين نصائح عالم يعرف ما هو العلم وماذا يحمل بالعلماء فى طلبه، فكان يقول: "تعلموا العلم وتعلموا للعمل السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه وتواضعوا لمن تعلمون، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم". وكان يوصى طلابه "أن يكونوا أوعية للكتاب وينابيع العلم، ويسألوا الله رزق يوم بيوم، ولا يضيرهم ألا يكثر لهم"، ولا يزال يذكرهم أن التفقه مقدم على السيادة "فتفقهوا قبل أن تسودوا".

ولم يقصر نصائحه على علم الدين وحده، ولا علم الأدب واللغة وحده، بل تناول كل ما عرف من معارف زمانه فقال: "تعلموا من النجوم ما يدلكم على سبيلكم فى البر والبحر ولا تزيدوا عليه". ولا شك أن نصائحه العملية فى طلب العلم كانت أغلب فى نصائحه النظرية فيه، شأنه فى ذلك شأن رجل الدولة الذى يعلم الناس ما ينفعهم ويصلح معاشهم ويهذب أخلاقهم.. ولكننا مخطئون إن فهمنا من هذا القول الذى رويناه فى علم النجوم أنه كان يكره الزيادة الحديثة فيه كما عرفناها نحن فى أيامنا، فإنما الزيادة التى كرهها هى تلك الزيادة التى كانت على عهده تخوض فى التنجيم وتربط أقدار الناس بالكواكب وتجعل منها أربابًا تعب وأرصادًا تؤتمن على

أسرار الغيب. وذلك ما انتهى عنه الآن ونعد النهى عنه من تحقيق العلم الصحيح.

ولم يفته الحرص على المعرفة التى تخترع منها منافع فى أمر المعاش، فطلب إلى أبى لؤلؤة غلام المغيرة أن ينجز ما ادعاه من اختراع طاحون تدار بالهواء، وهو علم الصناعات كما انتهى إليه فى عصره، لا يضيره أنه قسط ضئيل، بل حرصه عليه مع ضآلته دليل على ما يلقاه منه تشجيع الصناعة يوم يراها جليلة كبيرة الآثار.

على أن زبدة الثقافة كلها فى أقطاب الحكم وعظماء الأعمال إنما تتلخص فى شيء واحد هو الدراية بالناس، ونفاذ البصر فى شئون الدنيا، وصدق الخبرة بدخائل النفس البشرية، أو هو ما نسميه فى أيامنا هذه بالرأى السليم والحكمة العملية، وهو مجال كان عمر بن الخطاب قلل النظراء فيه، وحفظت له كلمات فى معانيه يندر مثيلها بين كلمات الحكام، ولا يكثر مثيلها بين كلمات الحكماء.

فأى كلمة أدل على النفس البشرية من قوله: "ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر، ولكنه الذى يعرف خير الشرين".

وأى نفاذ فى تركيب ا لطبائع أمضى من نفاذه إذ يقول: "ما وجد أحد فى نفسه كبرا إلا من مهابة يجدها فى نفسه"، أليس هذا بعينه هو موكب النقص الذى يله جبه علم النفس الحديث؟

وأى رأى فى تجربة الناس أصدق من رأيه حين يقول:

"لا تعتمد على خلق رجل حتى تجربه عند الغضب"، أو حين أتى بعضهم على رجل أمامه فسأله: أصحبته فى السفر؟ أعاملته؟ فلما أجابه نفيًا قال: "فأنت القائل بما لم تعلم؟".

وأى فهم لمعنى الاستعداد للعمل أقرب من فهمه حين ينصح العاملين: "إذا توجد أحدكم فى الوجه ثلاث مرات فلم ير خيرًا فليدعه"؟

كذلك سداد جوابه حين سئل فيمن يشتهى المعصية ولا يفارقها، وفيمن ينتهى عنها وهو لا يشـهيها، أيهما أفضل وأجـزل مثوبة عند الله؟ فكتب فى هذا فصـل الخطاب إذ قال: "إن الذين يشـتهـون المعصيـة ولا يعملـون بها، أولئك الذين امتـحن الله قلوبهم للتقوى لهم مـغفرة وأجر كـريم". وكذلك وصيته بكتمان السر وتبيينه لحـسن عقاده حين قال" "من كتم سره كان الخيار بيده".

وكذلك وصيته فى الحب والبـغض حين قال "لا يكن حبك كلفا. ولا بغضك تلفًا".

وكذلك مخـافته محنة الفراغ على الناس أشـد من مخافته مـحنة الخمر حين قال: "أحذركم عاقبة الفراغ فإنه أجمع لأبواب المكروه من السكر."

وكـذلك وصايـاه التى كانت تحـفل بهـا كـتبـه إلى الولاة وخطبـه فى الصلوات والأعياء كلها آيات من هذه الحكمة العملية التى هى خلاصة الثقافة المحمودة فـى أقطاب الحكم خاصة، وفى كل رجل يزاول شؤون الحـياة على التعميم.

أما مشـاركته فى سائر الفنون والمعـارف التى كانت ميسـورة على عهده فمنها المستغرب عند من يتخيل صورة عمر من جملة أخباره، ولا ينقصى فيها إلى التفصيل.

فقليل من يتـخيل أن عـمر كان يعف "جـغرافيـة" الشرق كأحـسن ما يعرفـها رجل فى وطنه، ولكنه كـان يعرفهـا حقا عن سـماع وعن رؤية وعن زكانة تعـين السماع والرؤية. بل كـان يفرض على الولاة أن يحـيطوا بعلم ما يتولونه من البلاد ويعزل من يرى فيه تقصيراً عن ذاك. فاستقدم عمار بن ياسر أمـيـر الكوفـة لما شكوه إليـه وقـالوا فى شـكواهم إياه "إنه لا يدرى عـلام استـعمل" وجـعل يسأله عن المواقع والبـلدان من بلاد العرب والفـرس حول الكوفة سؤال مطلع خبير، ثم عزله لتقصيره بعد اختباره.

ومن الواجب أن نشك فى كل خبر يوهم أن عمر كان يجهل معرفة من المعارف العملية التى يحتاج إليها فى تدبير الدولة، فلا يعقل مثلا أنه كان يجهل المعرفة العامة بالحساب وقد كان تاجراً منذ نشأته فى الجاهلية، وكان يحضر الجيوش ويعرف ما هى الألوف وما هى عشرات الألوف، فإذا استفسر عن رقم فلن يكون إلا استفسار تجاهل واستعظام وليس بجهل وغرارة كما جاء فى أخبار الخراج من هجر والبحرين.

قالوا أبو هريرة ما فحواه: قدمت من هجر والبحرين بخمسمائة ألف درهم: فأتيت عمر بن الخطاب ممسيًا أسلمه إياه فسأل كم هو؟ قلت خمسمائة ألف درهم! قال: وتدرى كم خمسمائة ألف درهم؟! قلت نعم: مائة ألف ومائة ألف خمس مرات.. قال: أنت ناعس، اذهب فبت الليلة التى تصبح!

فكل شىء يجوز أن يفهم من هذه القصة إلا أن عمر كان يجهل ذلك الرقم ولم يسمع بمثله قبل ذلك، وهو الذى شهد الدولة وحاسبها من عهد أبى بكر وأحصى الجند والمال فى عهد.. إنما هى غبطة واستعظام وليس هو جهلا بدلالة هذا الرقم فى جملة الحساب.

وإذا قل من يخيل علم عمر بالجغرافية والحساب فأقل من أولئك من يتخيل له حظا من السماع والغناء، ولكنه كان يسمع ويغنى فى بعض الأحيان، ولا ينهر عن غناء إلا أن تكون فيه غواية تثير الشهوات. جىء له برجل يغنى فى الحج وقيل له إن هذا يغنى وهو محرم، فقال: دعوه فإن الغناء زاد الراكب.

وروى نائل مولى عثمان بن عفان أنه خرج فى ركب مع عمر وعثمان وابن عباس، وكان مع نائل رهط من الشبان فيهم رباح ابن المعترف الفهرى الذى كان يجدو ويجيد الحداء والغناء. فسألوه ذات ليلة أن يجدوا لهم فأبى وقال مستنكرا: مع عمر! قالوا: أحد فإن نهاك فانته. فحدا[1]، حتى إذا كان

(١) الحداء: الغناء للإبل كى تجد فى السير، والنصب: غناء أرق من الحذاء وهو غناء الركبان.

السحر قال له عمر: كف فإن هذه ساعة ذكر، ثم كانت الليلة الثانية فسألوه أن ينصب لهم العرب. فأبى وأعاد استنكاره بالأمس قائلا: مع عمر؟.. قالوا له كما قالوا بالأمس: انصب فإن نهاك فانته. فنصب لهم نصب العرب حتى إذا كان السحر قال له عمر: كف فإن هذه ساعة ذكر. ثم كانت الليلة والثانية فسألوه أن يغنيهم غناء القيان[1]. فما هو إلا أن رفع عقيرته[2] بعنائهن حتى نهاه وقال له: كف فإن هذا ينفر القلوب.

وكان يخرج للحد ومعه من يحسن الغناء فيقترح عليه أن يغنى شعراً ويؤثر أن يكون ذلك من شعره.

خرج مرة للحج ومعه خوات بن جبير وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن ابن عوف، فاقترحوا على خوات أن يغنيهم من شعر ضرار، وقال عمر: بل دعوا أبا عبد الله فليغن من بنيات فؤاده. فما زال يغنيهم حتى كان السحر، فهتف به عمر: ارفع لسنك يا خوات فقد أسحرنا.

وجاءه قوم فذكروا أن إمامهم يصلى بهم العصر ثم يتغنى بأبيات من الشعر، فقام معهم إلى واستخرجه من منزله وسأله فيما بلغه عنه، واستنشده الأبيات التى يغنيها، فأنشده:

وفؤادى كلما نبهته ... عاد فى اللذات يبغى تعبى
لا أراه الدهر إلا لا هيًا ... فى تماديه فقد برح بى
يا قرين السوء ما هذا الصبا ... فمنى العمر كذا باللعب[3]
وشباب بان[4] منى فمضى ... قبل أن أقضى منه وأبى
نفس لا كنت ولا كان الهوى ... اتقى المولى وخافى وأرهبى

(١) القيان: جمع فتية وهى الجارية البيضاء، وقيل: تختص بالمغنية. (٢) عقيرته: صوته.
(٣) الصبا: من الشوق، يقال منه (تصابى)، والصبا اللعب مع الصبيان.
(٤) بان: ذهب وودع.

فأعاد البيت الأخير، وقال لمن شكوا إليه: من كان مغنيًا فليغن هكذا. وكان مرة فى سفر فرفع عقيرته بالغناء وأنشد:

وما حملت من ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمة من محمد

فاجتمع الركب إليه، فقرأ فتمرقوا. فعل ذلك وفعلوه مرات، فصاح بهم: "يا بنى المتكاء[1]! إذا أخذت فى مزامير الشيطان اجتمعتم، وإذا أخذت فى كتاب الله تفرقتم؟.." لا يلومهم على الغناء وسماعه، وإنما يلومهم أن يؤثروه على سماع القرآن مرات.

ولا شك أن الشغف بالشعر الجزل والحديث الرائق والصوت الحسن لا يجتمع فى نفس إلا اجتمع معه ذوق للجمال وسرور بكل حسن جميل. ولكن أين يقع هذا من صرامة عمر بأسه وشدة حجره على زينة الحسان؟ فقد دخل فى روع أناس أنها جميعًا من نفاض حب الجمال، وقد سمعنا هذا فعلا من أدباء يجلون عمر ولا يحسبون ذوق الجمال من مأثور حسناته، لأنه كان شديداً فى الحجاب وكان ينفى الفتيان الحسان كما صنع بنصر بن حجاج ومعقل بن سنان، وكان يقول: "استعينوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر".

وعندنا نحن أن هذا جميعه ينم على الإحساس بخطر الجمال وطغيان فيئته، ولا ينم على غفلة عنه وقلة مبالاة بأثره. وما نخال أحداً من المترخصين فى الحجاب كان يؤمن بسلطان الجمال أبلغ من إيمان عمر بسلطانه، أو كان يعرف حق المرأة فى الشوق إليه كما عرفه وأمر برعايته، فإنه كان ينكر على الآباء أن يكرهوا فتياتهم على قباح الوجوه ويوصيهم: "ألا تكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح فإنهن يحببن ما تحبون". وجاءت له امرأة بزوج أشعث أغبر تسأله الخلاص منه، فأمر به أن يحم وأن تقلم أظفاره

(١) المتكاء: المرأة لم تختن.

ويؤخذ من شعره، ثم قال له ولمن فى مجلسه: "هكذا فاصنعوا لهن فو الله أنهن ليحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لكم".

فكل ما روى عن عمر من الشدة والرفق فى معرض الجمال فهو دليل على الإحساس به وإكبار خطره، وليس بدليل على الغفلة عنه استصغار أثر، وربما كانت الشدة والحجر أدل على ذلك من الرفق والمحاسنة.

ومن الآداب العامة التى لها حظ من ذوق الجمال فى معارض السياسة أدب الذكريات الذى لا يستغنى عنه ولاة الأمر الموكلون بإحياء معالم الدول والاحتفال بمراسمهما وأعيادها.

ففى هذا الأدب كان لعمر النصيب الذى يغنيه، فهو الذى اختار أو وافق على اختيار يوم الهجرة بداية للتاريخ الإسلامى. وأنه لأصلح يوم يؤرخ به الإسلام لأن العقائد كما قلنا فى "عبقرية محمد": تقاس بالشدائد ولا نفاس بالفوز والغلب، وكل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز فى الدعوة. أما النفس التى تعتقد حقا ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقا فهى النفس التى تؤمن فى الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء".

وكلما اقترح على عمر اقتراح فيه نفحة من ذوق الذكرى كان مجيبًا له سريع الإصغاء إليه. فكان يحترم وفاء بلال وإقلاعه عن الآذان بعد وفاة النبى عليه السلام ولكنه دعاه إلى الآذان تلبيه الحلة من الصحابة فى يوم وداع دمشق بعد الفتح المبين. فبينما المسلمون يشهدون الصلاة الجامعة إذا بالصوت الذى انقطع بعد النبى يرتفع رويدا رويدا فى الفضاء ويسرى رويدا رويدا من الأسماع إلى الصدور، والتفتوا وكأنهم يسألون: ماذا؟ هل عاد محمد إلى الأرض؟ إن لم يكن قد عاد فقد عاد الحنين إليه أقوى ما ينبعث من صوت إنسان إلى صدر إنسان... فذابت قلوب لا يذيبها الهول، وبكى أشيب أولئك الأبطال وأصبرهم على حر القتال.

وإذا كان عمر المعجب بالجمال مستكنا وراء ستار يحوجنا إلى النظر من ورائه فعمر الرياضى المشغول بالرياضة البدنية ظاهر لنا بعمله وقوله، وبسيرته فى الجاهلية وسيرته بعد الإسلام، وسيرته بعد الخلافة إلى أن فارق الحياة.

فكان يصارع فى المواسم ويسابق على الخيل، وكان ينوط مجد العرب بالرياضة والفروسية ويكتب إلى الأمصار أن "علموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر"، ولا يفتأ يذكرهم أنه: "لن تخور قوى ما دام صاحبها ينزع وينزو" أى يرمى بالقوس ويركب ظهور الخيل بغير ركاب.

أما الخطابة فقد كانت فيه من صفات البنية ولم تكن من صفات الذهن وكفى، فكان له فم يمتلئ بالكلام حين يخطب كأنه خلق ليقول، ولوحظ عليه أنه كان ينطق ببعض الحروف - كالصاد - من كلا شدقيه وهى تنطق فى الأغلب من شدق واحد.

وكان جهورى الصوت واضح النطق سليم الشقين فى إخراج الحروف، وكتابته كلها كأنها خطب مرتجلات تقرؤها فكأنك تصغى إلى خطيب لا تفقد منه إلا الصوت المسموع.

ولا نطباعه على الكلام الذى لا تصنع فيه كان يسهل كل كلام يوافق طبعه ولا يستصعب من الخطب إلا الذى يغير من نظرته إلى الناس ويلجئه إلى المدارة والباطل فكان يقول: "ما يتصعدنى[1] كلام كما تصعدنى خطب النكاح"، والتمس ابن المقفع عنه ذلك فقال: ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه، ونظر الحداق من قرب فى أجواف الحداق[2]، ولأنه إذا كان جالسا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء، وإذا علا المنبر صاروا سوقة

(١) ما يتصعدنى كلام: ما يشق على.

(٢) الحداق: جمع حدقة وهى سواد العين.

ورعية، والتمس الجاحظ علة ذلك فروى عن أناس أنهم رجعوا باستصعاب عمر لخطب النكاح إلى "أن الخطيب لا يجد بدا من تزكية الخاطب، فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زورا وغر القوم من صاحبه". وكلا القولين جائز فى بيان وجه المخالفة بين طبع عمر والتكلم فى محافل النكاح. فهو مطبوع على أن يتكلم إلى الناس كلام رجل يقود الرجال، ومطبوع على الصدق تثقل على صاحبه المداهنة، وهى مما لا غنى عنه فى هذا المقام، ولو كان الخاطب من الأكفاء.

وقد اختلفوا فى نظمه الشعر فزعم الشعبى أنه كان شاعراً ورويت أشعار لا تشبهه ولا ترضيه، ونفى هو نظمه للشعر حين قل: "لو كنت أقول الشعر لرئيت أخى زيدا".

ولا طائل فى هذا الخلاف لأنه لن ينتهى إلى رأى قاطع يسكت عليه، ولكنما الهم فى هذا الصدد أنه كان مطبوعًا على التعبير وله عبقرية فيه، أو أن تعبيره كان خاصا به لا يشبهه تعبير سواه، فهو تعبير عمرى بمفرداته وتركيبه لا يلتبس بتعبير أحد من أهل عصره حتى ليسهل تمييز كلامه من كل كلام، ويصعب تزوير القول عليه ولو أحكمت المحاكاة.

فمن خصوصياته فى التعبير أنه كان يقول: "لولا الخليفى لأذنت"، وهو يعنى الخلافة ولا يقصد الأغراب.

ومنها وهو ينقل خبر إسلامه إلى خاله: "وجئت إلى خالى فأعلمته فدخل إلى البيت وأجاف الباب" أى أوصده.

ومنها وهو يصف ما وقع من الآية التى تلاها أبو بكر رضى الله عنه حين أنكر موت النبى فقال: "والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تلقى رجلاى"، يعنى أنه عجز عن القيام.

ومنها فى الكتابة والقراءة ينهى عن العجلة فيها: "شر الكتابة المشق وشر القراءة الهذومة، وأجود الخط أبينه[1].

ومنها وهو يذكر امرأة كانت تسقى الناس يوم أحد: أنها "كانت تزفر للناس تمر به" أى تحملها.

ومنها فى المشورة: "الرأى الفرد كالخيط السحيل، والريان كالخيطين المتزمين، والثلاثة مرارا لا يكاد ينتقض"[2].

ومنها حين كتب إلى أبى عبيدة بعد ولايته الخلافة: ". . ولا تبعث سرية إلا فى كثف من الناس"[3].

ومنها حين شكا إليه الشاكى هجاء الشاعر الذى قال فيه:

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل مورد

فقال: ذلك أنفى "للسكاك" أى الزحام.

ومنها فى سماحة بالبكاء "ما لم يكن تقع أو لقلقه" أى ما لم يشر التراب ويفرط فى العويل. .

ومنها وقد حار بأهل الكوفة: "أعضل[4] بى أهل الكوفة ما يرضون بأمير ولا يرضاهم أمير".

ومنها: "إن قريش تريد أن تكون مغويات لمال الله" أى مصائد تحتجنه لها دون عباد الله.

ومنها: "تمعدوا واخشوشنوا واقطعوا الركب وانزوا على الخيل نزوا" أى تزيوا بزى العرب من معد بن عدنان.

---

(١) مشق فى الكتابة: مد حروفها وأسرع فيها، هذرم القرآن: أسرع فى قراءته لا يتدبر معانيه.

(٢) السحيل: الثوب السحيل الذى لا يبرم غزله، مرار: قوية محكمة.

(٣) الكثف: الجماعة. (٤) أعضل بى: أعيانى أمرهم.

ومنها: "فرقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين، ولا تلشوا[1] بدار معجزة" أى تقيموا.

ومنها: "فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذى بايعه أن يقتلا" أى أن يتعرضا للقتل.

ومنها: ". . إن الاقتصاد فى السنة خير" من الاجتهاد فى الضلالة، فافهموا ما توعظون به. فإن الحريب من حرب دينه" يريد المسلوب.

ومنها وقد سمع بامرأة سافرة يبرزها زوجها فقال: "هذه الخارجة وهذا المرسلها لو قدرت عليهما لشترت بهما" أى لأغلظت القول لهما.

ومنها لما سألوه: لم حصبت المسجد فقال: "هو أغفر للنخامة وألين فى الموطن" أى أستر للبصاق.

ومنها: "ثلاث من الفواقر[2]: جار مقامة إن رأى حسنة سترها وإن رأى سيئة أذاعها، وامرأة إن دخلت عليها لسنتك وإن غبت عنها لم تأمنها. وسلطان إن احسنت لم يحمدك، وإن سألت قتلك"، ولسنتك: أى تناولتك بلسانها.

ومنها: وهو يخاطب سعد بن عبادة يوم القيفة: "لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضدك" أى تسقط.

ومنها وهو يتكلم عن امرئ القيس: "خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصح بصر"، أى استنبط عين الشعر وشتق طريق المعانى وأتى بالشوارد الحسان.

ومنها وهو يتكلم عن نصيب المسلمين فى الغنائم وبيت المال: "والله

---

(١) فى المختار: ولا تقيموا ببلدة فيها عن الاكتساب والتعيش.

(٢) الفواقر: جمع فاقرة وهى الداهية.

لئن بقيت ليـأتين الراعى بجيل صنعاء حظـه من هذا المال وهو مكانة قبل أن يحمر وجهه"، أى قبل أن يخجل ويحمر وجهه فى طلبه.

ومنها قـوله الأعرابى استـفتاء فى صـيد ظبى وهو محـرم: "أتقتل فى الحرم وتغمص الفتيا!" أى تعيبها ولا ترضاه.

وأشباه هذا كثير لا تخلو منه خطبة أو حديث أو كتاب، تعمدنا أن نكثر شواهده لنرى أنه ليس بالمصادفة وليس بالتكرير لنمط واحد من العبارات.

ويلحق بهذا تسمية موالية بين أسبق وأسلم ويرفأ وفرقد وذكوان وفروخ وما شـابه هذه الأسماء، وهـى تسميـة مفردة تكاد تقـتصـر عليه، وإنما هى الطبيعة العـمرية تمثلت فى صيغة الكلام وفى اختيـار الأعلام، فلا تستطيع أن تسميها اغـرابًا أو عسطلة أو تعملا[1] بنحو من أنحائه، إذا ليس وراءها قصد متـفق فى جميع هـذه الصيغ، وأبين ما بين فـيها أنهـا من عفـو البداهة هنا وهناك، وأنها تترجم عن الطبيعـة العمرية أصدق ترجمة وأشبههـا بصاحبها، فهى قوية خشنة مستقلة جـادة خالية من الزخرف. وهكذا كان المتكلم عمر، وهكذا كان كلامه الـذى ينطبع عليه حين يكون منطبعًا على التـعبير، فلو أن كلمات تتمثل رجلا لتراءى لنا من مثـال هذه الكلمات شخص عمر فى خلقه وخلفه كما كان.

ومحصل هذه الأخبار جميعًا أن عمر كان من نخبة المثقفين فى العربية، وكان وفر الـسهم فى ثقافة قـومه وعصره. وكـان الجانب العملى من ثقافـته أغلب وأظهر من جـوانبها النظرية كمـا هو المعهود فى ساسـة الأمم وعواهل الدول. وإن كـان هذا لا يمنع أنه اشتـاق إلى نفس الشعـر وأطايب الأدب لما يجده فيها من راحة النفس ومتعة الخاطر.

ويسـتطرد بنا الكلام على ثقافـته العـربية إلى الكلام عـلى موقفـه من

---

(١) العسطلة: الكلام بلا نظام، وكلام معسلط أى مخلط. والتعمل: التكلف.

الثقافات الأخرى فى زمانه، وعلى حقيقة الرواية التى شاعت وتواترت عن موقفه من مكتبه الإسكندرية التى قيل أنه أمر بإحراقها. فهل هو الآمر بإحراقها كما جاء فى تلك الرواية؟ وإذا كان هو الآمر بذلك فما دلالته على تفكيره؟ وما وجه التبعة فيه؟ فحوى تلك الرواية أن عمرو بن العاص رفع إليه خبر المكتبة الكبرى فى الإسكندرية فجاءه الجواب منه بما نصه: "أما الكاتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه. فتقدم بإعدامها". قال مفصل هذه الرواية: فوزعت الكتب على أربعة آلاف حمام بالمدينة ومضت ستة أشهر قبل أن تستنفد لكثرتها!

وأحرى شيء أن يلاحظ فى مسألة المكتبة هذه أن الذين أدحضوها وأبرأوا عمر من تبعتها كان معظمهم من مؤرخى الأوروبيين الذين لا يتهمون بالتشيع للمسلمين وكانوا جميعًا من الثقات الذين يؤخذ بنتائج بحثهم فى هذا الموضوع.

فالمؤرخ الإنجليزى الكبير إدوارد جيبون Gibbon صاحب كتاب الدولة الرومانية فى إنحدارها وسقوطها يسرد ويعقب عليها قائلا: "أما أنا من جانبى فإنى شديد الميل إلى إنكار الحادثة وتوابعها على السواء، لأن الحادثة لعجيبة فى الحق كما يقول مؤرخها هو أن نسمع ما جرى ونعجب!.. وهذا الكلام الذى يقصه أجنبى غريب يكتب على تخوم ميدية بعد ستمائة سنة يوازنه ويرجح عليه ولا شك سكوت اثنين من المؤرخين كلاهما مسيحى وكلاهما مصرى، وأقدمهما البطريق يوتيخيوس Eurghius الذى توسع فى الكتابة عن فتح الإسكندرية. وأن القضاء الصارم الذى نسب إلى عمر لبغيض إلى أصحاب الفهم الصحيح المستقيم من فقهاء المسلمين الذين يفتون بتحريم إحراق الكتب الدينية التى تغنم من اليهود والمسيحيين فى الحرب، وما كان من الكتب دنيويًا ظنينًا سواء ألفه المؤرخون أو الشعراء أو الأطباء أو الفلاسفة

فحكمهم فيه أن يستخدم على الوجه المشروع لمنفعة المؤمنين. وقد تعزى إلى متقدمى الخلفاء بعد محمد غيرة أضرى من ذلك بالهدم والإبادة. ولكن لو صح هذا لوجب أن تنفد الأوراق سريعًا لقلة المادة المحترقة! فلا ترجع إلى نكبة المكتب فى الحريق الذى أصابها على غير قصد بيدى قيصر وهو يدافع عن نفسه، ولا إلى تعصب المسيحيين الأوائل الذين كانوا يدبرون الوسائل تدبيراً لتعفية الآثار المتخلفة من أيام عبادة الأصنام، ولكننا ننحدر شيئًا فشيئًا من عصر أنتونين إلى عصر ثيوديسيوس فنعلم من سلسلة الأبناء المعاصرة أن القصر الملكى وهيكل سرابيس لم تبق فيهما تلك الأسفار التى جمعها البطالسة وبلغت فى إحدى الروايات أربعة آلاف وفى رواية أخرى سبعة آلاف، ولا يبعد أن تحفل الكنيسة ومعهد البطارقة بذخيرة من الأوراق والأضابير، فإن كانت هذه هى الوقود الذى أفنته الحمامات بما كان فيها من جدل بين القائلين بتعديد الطبيعة المسيحية والقائلين بتوحيدها فقد يرى الفيلسوف وعلى فمه ابتسامة أنها كانت فى الحمامات أنفع لبنى الإنسان!".

والدكتور الفرد بتلو Butler المؤرخ الذى أسهب فى تاريخ فتح العرب لمصر والإسكندرية يلخص الحكاية وينقصها ابتداء لأن حنا فلبيوتوس الذى قيل أنه خاطب عمرو بن العاص فى أمر المكتبة لم يكن حيًا فى أيام فتح العرب لمصر.. ثم ينقضها لأسباب شتى منها أن كثيراً من كتب القرآن السابع كانت من الرق[1] وهولا يصلح للوقود، وأنها لو قضى الخليفة بإحراقها لأحرقت فى مكانها ولم يتجشموا نقلها إلى الحمامات مع ما فيه من التعب ومع إمكان شرائها من الحمامات بعد ذلك بأبخس الأثمان، وأننا لو صرفنا النظر عن الكتب المخطوطة على الرق لما كفى الباقى من ذخائر المكتبة لوقود أربعة آلاف حمام مائة وثمانين يومًا، وهذا عدا الشك الذى يعتور القصة من تأخر كتابتها زهاء خمسة قرون ونصف قرن بعد فتح الإسكندرية، ثم كتابتها

(١) الرق: بفتح الراء وكسرها، جلد رقيق يكتب فيه.

بعد ذلك خلوا من المصادر والأسناد، بل هذا عدا ما قيل من احتراق المكتبة فى السنة الثامنة والأربعين للميلاد، وفيما تلا ذلك من الفتن والقلائل بين طوائف المسيحيين.

والمستشرق كارانوفا يسمى الحكاية أسطورة ويقول أنها نشأت بعد تاريخ الحادثة بستة قرون، وينتقضها لمثل الأسباب التى لخصناها من كتاب بتلر، ثم يقول: " . . وهناك اعتراض أخطر مم تقدم وهو أن ما ذكر عن يحيى النحوى منقول عن كتاب الفهرست لابن النديم فى أواخر القرن العاشر، وفيه أن يحيى هذا عاش حتى فتحت مصر وكان مقربًا من عمرو ولم يذكر شيئًا عن مكتبة الإسكندرية، فحادثة المكتبة إذن من أوهام ابن القفطى أخذها عن خرافة كانت شائعة فى عصره".

ثم يمضى فى تفنيده فيقول: وقد تساءل ابن خلدون عن مخلفات الفرس والأشوريين والبابليين والقبط التى حرقها عمر عند فتح العرب. وقال ابن خلدون فى كلام آخر: أن العرب لما فتحوا بلاد الفرس سأل بن أبى وقاص عمر عما يأمر به فى شأن الكتب التى بها فأمره بإلقائها فى اليم فانتقلت القصة من فارس إلى الإسكندرية مع الزمن، وفعل الخيال فعله فى تحريفها.

"وقد وقع تحريف فى هذه الخرافة فى بعض دوائر المعارف حيث نقل عن سبرنجل أن مكتبة الإسكندرية حرقها العرب عند فتح مصر وأن الخليفة المتوكل أنشأها من جديد، وأن الترك فتحوا الإسكندرية سنة ٨٦٨ وأضرموا فيها النار على عهد أحمد بن طولون. . ولكن أحمد بن طولون لم يفتح مصر وإنما أقامه خليفة بغداد حاكمًا عليها، فلا علاقة للترك إذن بهذا الحادث المزعوم".

قال: "وفى سنة ١٨٧٧ ذكر الكونت دى لندبرج أن أحد الضباط الإنجليز أنهم نابليون الأول بإحراق مكتبة الإسكندرية.

قال: "وسنلم هنا بالسبب الذى من أجله ظهرت هذه الخرافة فى القرن الثالث عشر ولم تظهر قبل ذلك".

"ففى أواخر القرن الثانى عشر رجعت مصر إلى حكم خلفاء بغداد، وأبلى صلاح الدين بلاءه فى الحروب الصليبية وانتصر على المسيحيين فلقبه الشعب بفاتح مصر، وقرن بين اسمه واسم عمر بن الخطاب. وكان لابن القفطى أب يعجب بصلاح الدين ولاه صلاح الدين قضاء القدس، وعاصر عبد اللطيف البغدادى وهو من المعجبين مثله بصلاح الدين، فتلاقيا فى القدس منه هذه الأسطورة التى توسع ابن القفى فى نقلها. فكان أول من ألف هذه الأسطورة من ألف هذه الأسطورة من حاشية صلاح الدين لتزكية حاكم مصر الجديد. فكان أول من ألف هذه الأسطورة من حاشية صلاح الدين لتزكية حاكم مصر الجديد. ومما يروى عن صلاح الدين أنه باع كنوز القصر والمكتبة فبقيت هذه الرواية إلى القرن الثامن عشر يوشيها ما ينسجه الخيال حول الخرافة العمرية. ثم اتخذت صورتها التاريخية منذ ذلك العهد وتعززها خرافات أخرى لحقت بعمر ووافقت معنى قوله ألا كتاب إلا كتاب الله.."

ومن المشارقة الذين تناولوا حكاية المكتبة المؤرخ الكبير جورجى زيدان فى الجزء الثالث من كتابه "تاريخ التمدن الإسلامى" حيث قال أنه كان يميل إلى نفى الحكاية ثم عدل عن ميله هذا إلى قبولها وأورد من أسباب ذلك "أن حكاية إحراق مكتبة الإسكندرية لم يختلفها أبو الفرج لتعصب دينى، ولا دسها أحد بعده، بل هو نقلها عن ابن القفطى وهو قاض من قضاة المسلمين عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجر والتعديل، وكان صدراً محتشما جمع من الكتب مالا يوصف، وكانوا يحملونها إليه من الآفاق، وكانت مكتبته تساوى خمسين ألف دينار، ولم يكن يحب من الدنيا سواها، وله حكاية غريبة من غرامة بالكتب، ولم يخلف ولداً فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب،

وله مؤلفات عديدة فى التاريخ والنحو واللغة، وفى جملتها كتاب أخبار مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين فى ستة مجلدات، وكتاب تراجم الحكام الذى نحن فى صدده، وان ابن القفطى وعبد اللطيف البغدادى أخذا عن مصدر ضائع. وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلابد له من سبب، والغالب منهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الإسلامى واشتغال المسلمين بالعلم وعرفتهم قدر الكتب، فاستبعدوا حدوث ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه، أو لعل لذلك سببًا آخر، وفى كل حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبى الفرج. . ".

ونرى نحن أن ابن القفطى كان أولى ممن تقدموه بالسكوت عن حريق المكتبة بأمر عمر بن الخطاب لو كان الذين تقدموه قد سكنوا عنه لعرفانهم قدر الكتب وغيرتم على سمعة الخلفاء الراشدين، فإن القفطى لا يجهل قدر الكتب ولا يسبقه سابق من المؤرخين فى المغالاة بنفاسة المكتبات. فلابد من تعليل أصوب من هذا التعليل لسكوت المؤرخين المسلمين والمسيحيين الذين شهدوا فتح مصر عن هذه الحكاية إلى أن نجمت بعد بضعة قرون.

فمن جملة هذا العرض لأراء نخبة من الثقات فى هذه المسألة يحق لنا أن نعتقد أن كذب الحكاية أرجح من صدقها، وأنها موضوعة فى القرن الذى كتبت فيه ولم تتصل بالأزمنة السابقة له.

بسند صحيح، وربما كانت مدسوسة على الرواة المتأخرين للتشهير بالخليفة المسلم وتسجيل التعصب الذميم عليه وعلى الإسلام.

وإذا كانت هذه الحكاية من تلفيق النيات السيئة فالمعقول ألا نوضع قبل القرن السادس الهجرى الذى تسربت فيه إلى الكتب المدونة، وهذا يفسر لنا كل غموض يستوقف النظر فى الحكاية من جميع أطرافها.

لأن تلفيق هذه الحكاية يستلزم عناصر شتى لا تجتمع كلها فى وقت واحد قبل القرن السادس للهجرة.

فهو يستلزم أن يكون الملفق عليهما بالأقوال والأحوال التى أثرت عن عمر ابن الخطاب. وفيها ما يجعل حكاية المكتبة قريبة التصديق مشابهة لما يتوخاه الخليفة فى أوامره ونواهيه.. ولم تكن هذه الأقوال والأحوال معلومة مستفيضة الخبر بين المسلمين أنفسهم عند فتح الإسكندرية فضلا عن المسيحيين أو الإسرائيليين، وإنما علمت واستفاضت بعد ما دونت السير وجمعت المتفرقات.

ويستلزم تلفيق الحكاية، للتشهير بالخليفة المسلم، أن يكون الملفق عازفًا بما فى هذه التهمة من المعابة، شاعرًا بما فيها من الاعتساف والغرابة. ولم يكن هذا أيضًا مفهومًا فى أيام الإسكندرية بين خصوم الإسلام، لأنهم كانوا قد تعودوا إحراق الكتب والتماثيل واعتبار الوثنية وبقاياها رجسًا من عمل الشيطان يستحق نار الدنيا قبل نار الجحيم، وما من عارف بالكتب بينهم إلا كان يسمع بحماسة القياصرة المسيحيين فى تدمير التحف الإغريقية ولاسيما "ثاوديسيس" الذى أحرق هياكل شتى، فيها ولا شك كتب كثيرة من بقايا المكتبة التى عليها الخلاف.

وقد يستلزم تلفيق الحكاية أن تكون مصر وأخبارها موضع اهتمام ومثار قبل وقال، ولم تكن مصر قط قبلة أنظار العالم كما كانت فى أوقات الحروب الصليبية، يوم كانت هى ميدان الفصل ومناط الظفر والهزيمة بين جيوش الدنيا المحشودة فيها أو على أبواها.

وقد يستلزم كذلك أن يكون العصر حزازة بين الإسلام وخصومه كما كان عصر الحزوب الصليبية وما قبله بقليل.

وقد يستلزم مع جميع أولئك أن يشترك فى القيل والقال حافظوا الكتب الإغريقية فى بيزنطية وشواطئ آسيا الغربية، وهى البلاد التى كانت مواطئ أقدام الجيوش فى الكر والفر والقدوم والإياب، ومنها تذفق حافظوا الكتب إلى أوروبا عندما أغار الترك على بيزنطية من تلك الأرجاء.

فتلفيق الحكاية إذن كان عجيبًا فى أيام فتح الإسكندرية وما تلاها من الأزمنة إلى زمان القفطى والبغدادى وأبى الفرج الملطى، ولهذا لم تظهر حكاية المكتبة فى تلك الأيام.

وتلفيقها فى عصر الحروب الصليبية غير معجب لاجتماع الأسباب التى يستلزمها ذلك التفليق، ولهذا ظهرت فيه وأمدنا ظهورها فيه بالسبب الذى يبطل العجب ويفسر الغوامض التى لا يفسرها تعليل معروف غير هذا التعليل.

إلا أننا على الرغم من كل هذا نفرض أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية، فما هى الوصمة التى تلحقه من هذا الأمر؟ ولماذا كان يحرم عليه أن يحرقها ويحب عليه أن يستبقيها ويفتح أبوابها؟ ولماذا كان ينبغى أن يكون عل يقين أنها شىء مفيد للمسلمين ولغيرهم من الأمم، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لا يجوز التفريط فيها؟

أمن النقص فى التفكير الإنسانى أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعن عصر حكماء اليونان فلا يطلع على الفلسفة اليونانية؟ أكانت فائدة تلك الكتب واضحة كل الوضوح من أحوال أقوامها الذين حفظوها، إن صح أنهم خطفوها.

إن أحوال الروم والقبط فى ذلك العهد لم يكن فيها دليل واحد على أنهم محتفظون بينهم بمعرفة نفسية، وأن ضياع كتبهم فيه ضياع لذخيرة من ذخائر العالم التى لا يجوز التفريط فيها.

فقد كانوا على شر حال من العف والفساد والجهل والهزيمة والشقاق والتهالك على سفاف الأمور. فإذا كان عمر غير مطالب يعلم الفلسفة اليونانية أو غير ملوم على فوات الإطلاع عليها، وإذا كانت أحوال الأمم التى هى أهلها لا تدل على قيمتها بل تسوغ الاعتقاد بخلوها من كل قيمة، فأين هو العيب فى تفكيره إن صح أنه فكر على ذلك المنوال؟

إنما يعيب الإنسان أن يكون عـدوًا للمعرفة على إطلاقهـا ولم يكن عمر عدوًا للمعرفة ولا معرضا عنها، بل كـان مشغوفًا به حيث رآها دينية كانت أو أدبية، ومن قومه أتت أو من غير قومه.

فكان يستشيـر الغرباء فى تدوين الدواوين ومنافع الصناعة ولا ينهى عن علم شيء إلا أن تكون فيه فتنة أو ضلال.

وكانت ولا ريب يؤثر للمـسلمين أن يقبلوا على دراسة القـرآن ويقدموا فهمه على فهم كل كتاب، وهذا واجبه الأول الذى لا مراء فيه، وما من أحد هو مطالب بهذا الواجب قبل أن يطالب به عمر على التخصيص، لأنه الخليفة الذى فى عهده انتشر المسلمون بين أقطار المشرق وخيف عليهم أشد الخوف أن ينحل العقد الذى جمعهم وبث فيهم الهمة والبأس وسودهم على العالمين.

وفى الأخبـار التى نقلت بهذا الصـدد أن رجلا أنبـأه لما فتـحوا المدائن أصاب كتابًا فـيه كلام معجب، فسأله: أمن كتـاب الله؟ قال لا. فدعا بالدرة فجعل يضربه بها وهو يقـرأ: "الر. تلك آيات الكتاب المبين. إنا أنزلناه قرآنًا عربيًـا لعلكم تعقلون..؟ ثم قـال: "إنما أهلك قبلكم أنهم قـبلوا على كتب علمائهم وأساقفـتهم وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسا وذهب ما فـيهما من العلم".

رويت هذه الرواية عن عـمر بن ميـمون عن أبيه، وليس فـيهـا ما يأباه العقل ولو حكمنا على عمر بحكم الدنيا وحكم التجربة الواقعية وتركنا حكم الدين والإيمان إلى حين.

فبالتجربة الواقعية أيقن عـمر أن المسلمين بكتابهم خرجوا من الظلمات إلى النور وانصروا على ما حاربوه وعندهم كل كتاب.

وما فرغ المسـلمون بعد من قراءة القـرآن ولا انقضت على تداوله بينهم سنوات. فكيف يرضى الخليفة الذى يهمه أمر رعاياه أن ينصرفوا عنه إل كتب

لا يؤمن ما فيها؟ وكيف يكون الحال إذا تفرقوا شر مذر[1] ولهم فى كل بلد قراءة غير هذا الكتاب الذى لم يفرغوا منه ولم يستوعبوا كل ما فيه؟ أمن عداوة المعرفة هذا أو من إيثار المعرفة التى تتقدم على غيرها؟ وإذا لم تتقدم هذه المعرفة على غيرها فى السنوات الأولى من تداول القرآن الكريم فمتى تتقدم؟ ومتى يعطل القرآن حقه من الفقه والوعى والإقبال؟ وأين هى الغنيمة التى تعدل فى كتاب من الكتب بعض ما غنمه المسلمون بوحى القرآن فى صدر الإسلام؟

فعلى أى فرض من الفروض لم يكن فى تصرف عمر ما يأباه العقل الذى ينظر إلى الحقائق المشهودة والآثار الواقعة، ويجوز أنه أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية على أبعد احتمال، ولكن الذى لا يجوز لمنصف أن يفهم من ذلك أنه عدو الثقافة وهو الأديب الفقيه الخطيب، وهو قد وازن بين معرفة ظاهرة النفع ومعرفة مجهولة وظواهرها تغرى باتهامها. ولا لوم عليه أن يولد حيث يجهلها، ولا لوم عليه أن يتهما وهى لم تنفع أهلها يوم رآهم يخبطون فى الضلالة والهزيمة، ولا يقال عن عقل يفكر هذا التفكير إنه لم يفكر على هدى مستقيم.

***

(١) شذر مذر: أى متفرقين.